**جماليات تلاوة القرآن**

**د. سعيد توفيق**

سأدخل في هذا الموضوع الواسع العويص مباشرةً من خلال تأمل تلاوة القراءات في آية واحدة مطلعها هو: "وأُزلِفَتُ الجنةُ للمتقين غيرَ بعيد**".** تلك آية من آيات القرآن الحكيم، وهي الآية 31 من سورة ق؛ وسوف اُرجئ القول في فهمي وتفسيري لمعنى هذه الآية الكريمة وروحها قليلًا، داعيًا القارئ إلى تأمل هذا المعنى بإمعان كما جاءت الآية على لسان شيوخ القراءات العظام. لماذا؟ بالضبط لأن فهم المتلقي للمعنى هنا لا ينفصل عن إحساس المقرئ بهذا المعنى، ليس فقط من حيث الأداء الصوتي الجميل، وإنما أيضًا من خلال توصيل الشعور بجلال المعنى في كل وقفة من وقفات الصوت وفي كل حركة من حركاته. ولسوف يجد المتلقي أن هناك تلاوات عديدة لنص هذه الآية، بل سيجد أن هناك تنافسًا بين كبار المقرئين في تجويد تلاوة هذه الآية (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون): سيجد المتلقي تلاوة بتجويد الشيخ مصطفى إسماعيل، وسيجد تلاوة بصوت الشيخ محمد صديق المنشاوي، وهو الأثير عندي، وسوف يجد أيضًا تلاوة بصوت الشيخ إبراهيم الشعشاعي (ابن الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي)، وإن كنت أجد أن تجويد تلاوة هذه الآية بصوت إبراهيم الشعشاعي يأتي في المرتبة الأولى؛ وليختلف معي من يشاء، فلكل منا ذائقته التي تظل محدودة بما أَلِفَه وما عرَفه، وما عرفت إلا القليل! ولعل تفضيلي للشيخ إبراهيم الشعشاعي هنا يرجع إلى أنني كنت استمع إليه في موعد صلاة الفجر بحي السيدة زينب الذي كنت أسكنه، ومن ثم قد شكل جانبًا من وجداني الديني، فضلًا عن أنه قد أبدع وتجلى في تلاوته لهذه الآية بوجه خاص؛ ولهذا السبب نفسه، فإني أدعو القارئ والمفكر وكل صاحب ذائقة روحية في تأمل معاني القرآن إلى أن يقف على العلاقة بين الصوت والمعنى في تأمله لمعاني آيات القرآن الكريم وحكمتها.

نص الآية هو: "وأُزلِفَت الجنة للمتقين غيرَ بعيد. هذا ما توعدون لكل أوَّابٍ حفيظ، من خشيَ الرحمَن بالغيب وجاء بقلب مُنيب. أدخلوها بسلام. ذلك يوم الخلود. لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد" (علامات الترقيم هنا قد وضعتها بحسب وقفات تلاوة الآية على لسان إبراهيم الشعشاعي لأنه في تلاوته لهذه الآية يتفوق على الجميع، (ولكل شيخ آيته). هذه الآية التي ينبغي تأملها كاملةً هي من الآيات القرآنية التي تعبر عما أسميه "ميتافيزيقا القرآن"، وهذا النوع من آيات القرآن هو ما يفتنني ويأخذ بمجامعي؛ فهي آيات لا تنشغل بالعبادات وطقوس الدين، وإنما تنشغل بروحه العميقة؛ فهي تقدم لنا رؤية للعالم والكون والحياة وقصة الخلق، وهي تلك الأمور التي يحار فيها الفكر البشري مثلما يحار فيها العلماء ويقفون أمامها عاجزين عن تقديم تفسير يرضي الروح الإنسانية والعقل البشري المحدود.

في ضوء هذا ينبغي أن ننظر في تلاوة هذه الآية بأصوات الشيوخ العظام؛ إذ يصبح السؤال عندئذ: من هو المقرئ الذي يمكنه التعبير عن هذه الروح التي تتسم بالجلال، وعلى أي نحو جمع بين التعبير عن الجلال والجمال في الأداء؟ ذلك هو السؤال عندي:

تلاوة الشيخ مصطفى إسماعيل هي بلا شك تلاوة فائقة الروعة والجمال؛ ولكني لا أرى تلاوته هنا معبرة عن روح وجلال المعنى في الآية الكريمة؛ فهو مشغول- كعادته- بالتنغيم وإعادة تلاوة أجزاء الآية بمستويات صوتية متنوعة؛ من أجل أن يجتذب إعجاب الجمهور، وهذا يعني عندي أنه يتلو الآية وعينه على الجمهور في المقام الأول. أما الشيخ محمد صديق المنشاوي فإنه يتلو الآية من خلال حالة من الخشوع للمعنى الجليل الذي يتجلى فيها، وهذا شأن هذا الشيخ الجليل ومن سار على هذا النهج بأسلوبه وإحساسه الخاص. ولكي أقرِّب ما أود قوله من فهم القارئ، فبوسعي القول: إن المقارنة بين هذين الأسلوبين في الأداء تشبه المقارنة في فن الغناء بين أم كلثوم وعبد الوهاب: فالأولى تغني وعينها على الجمهور، فتعيد وتكرر الجمل الغنائية بأساليب متنوعة تُرضي أذواق جمهور المستمعين؛ أما عبد الوهاب، فقلما كان يغني أمام الجمهور، وهو يبدو كما لو كان يغني من أجل فن الغناء وما يُرَاد قوله من خلال هذا الفن، ولهذا فإنه يبدو جادًا في الغناء بحيث يبدو كما لو كان يؤدي مهمة فنية ينبغي أداؤها على أكمل وجه وفقًا للحن، أو لنقل: إنه لم يكن يهتم بتطريب الأذن قدر اهتمامه بمخاطبة العقل والوجدان معًا (وإلى حد ما يمكنني القول بأن الشيخ إبراهيم الشعشاعي كان من السائرين على هذا الدرب). لم يكن الشيخ إبراهيم الشعشاعي يسعى إلى إثارة إعجاب المستمعين وآهاتهم؛ بالضبط لأنه كان مشغولًا دائمًا بتأمل معنى الآيات القرآنية التي تملأ روحه، مثلما كان أيضًا هو حال محمد صديق المنشاوي؛ ولهذا سمى العارفون هذا الأخير بالقارئ الباكي. وليس معنى ذلك أنه كان يبكي في أثناء القراءة كما يفعل ذلك بعض المقرئين الذين يمتهنون قراءة القرآن؛ ولهذا لا أحب سماعهم (لأن البكاء الحقيقي ينبغي أن يكون سرًا أو باطنيًّا؛ فلا يمكن الجهر به إلا في ظروف وأحوال قاهرة). ومعنى هذا أن المنشاوي في تلاوته لا ينشغل باجتذاب آهات الإعجاب ولا باستدرار البكاء. ومن شاء أن يفهم مغزى ما أقول؛ فليرجع إلى تلك القراءات لهذه الآية الكريمة ولغيرها؛ بحيث يعكف على تأمل جلال المعاني من خلال تلاوة ألفاظها.